هوامش

بخلاف الوضع الحالي من تسبب الإنسان في حدوث الاحترار العالمي، والتغيرات المناخية، فإن العنصر البشري كان بريئاً من التدخل في التغيرات المناخية في العصور القديمة

عدم هطول الأمطار الموسمية عند منبع النيل، تسبب في زوال مستوطنات سكنية بأكملها (Getty)

التغيّر المناخي
عادات قديمة للأرض

محمد الحداد

بدأت تأثيرات تغير المناخ تظهر على حياة البشر في وقت مبكر جداً، وهو ما دفعهم إلى الهجرة من أماكن إلى أخرى. كانت هذه الهجرات مؤثرة بالدرجة التي أفنت حضارات، أو دفعت أخرى إلى تغيير أساليب حياتها، حتى تتمكن من التكيف مع الظروف المناخية الجديدة. في دراسة جديدة نشرت في دورية Studies in Late Antiquity، يشير باحثون في جامعة «بازل» السويسرية، إلى تأثير الجفاف على المستوطنات الزراعية في إقليم الفيوم، الذي يعرفه الجغرافيون بأنه «مصر الصغرى». تقول الدراسة إن عدم هطول الأمطار الموسمية عند منبع النيل، تسبب في حدوث هجرات بشرية وزوال مستوطنات سكنية بأكملها في أواخر العصر الروماني في مصر. عن طريق مقارنة التطور الديموغرافي بالبيانات البيئية لأول مرة من قبل أستاذة التاريخ القديم في جامعة بازل، توصل الفريق البحثي إلى اكتشاف عواقب تغير المناخ على مصر القديمة في فترة مهمة. كان إقليم الفيوم، الذي يبعد قرابة 130 كم جنوب غرب القاهرة، سلة خبز الإمبراطورية الرومانية. مع ذلك، في نهاية القرن الثالث الميلادي، تراجعت العديد من المستوطنات المزدهرة سابقاً، وهجرها سكانها في نهاية المطاف. أظهرت الحفريات السابقة والبرديات المعاصرة أن مشاكل الري في الحقول كانت هي السبب. دفع ذلك المزارعين المحليين إلى محاولة التكيف مع جفاف وتصحر الأراضي الزراعية عن طريق تغيير ممارساتهم الزراعية.

تشير البيانات المناخية الحالية إلى ضعف هطول الأمطار الموسمية على منابع النيل في المرتفعات الإثيوبية بشكل مفاجئ ودائم.

وكانت النتيجة انخفاض منسوب مياه النهر في فصل الصيف. عثر الباحثون على أدلة تدعم هذا الافتراض في الرواسب الجيولوجية من دلتا النيل وإقليم الفيوم والمرتفعات الإثيوبية. توفر هذه الرواسب بيانات مناخية طويلة الأجل عن الرياح الموسمية ومنسوب مياه النيل. زاد من تفاقم تأثير الظروف البيئية السيئة حدوث انفجار بركاني قوي قرابة عام 266 ميلادي، في العروض المدارية الشمالية. وفي العام التالي لحدوثه، تسبب الانفجار في انخفاض منسوب مياه الفيضان إلى مستوى أقل من المتوسط. تم التعرف إلى أدلة الانفجار عن طريق فحص رواسب حامض الكبريتيك في قلب الجليد من غرينلاند والقارة القطبية الجنوبية، ويمكن تأريخها في غضون ثلاث سنوات. يؤدي الهباء البركاني المتساقط في طبقة الستراتوسفير من الغلاف الجوي، إلى تبريد المناخ وتعطيل نظام الرياح الموسمية المحلية.

توضح سابين هوبنر، أستاذة التاريخ القديم في جامعة بازل والباحثة الرئيسية في الدراسة، أن القرن الثالث الميلادي شهد تعرض الإمبراطورية الرومانية بأكملها إلى أزمات في مصر، وثّقتها أكثر من 26000 بردية محفوظة في منطقة الفيوم. تشمل هذه السجلات بيانات السكان الذين تحولوا إلى زراعة الكروم بدلاً من الحبوب، أو تربية الأغنام بسبب ندرة المياه. كما ترصد السجلات اتهام بعض السكان في المنطقة جيرانهم بسرقة المياه، ولجوء هؤلاء السكان إلى السلطات الرومانية للمطالبة بالإعفاء من الضرائب.

ووفقاً لسابين هوبنر، فإن آثار تغير المناخ تفاوتت من مكان إلى آخر. وعلى الرغم من أن المناطق الواقعة على حافة الصحراء واجهت قسوة الجفاف، إلا أن مناطق أخرى استفادت بالفعل من تدفق المهاجرين الذين انتقلوا إليها من القرى المهجورة.

وبخلاف الوضع الحالي من تسبب الإنسان في حدوث الاحترار العالمي، والتغيرات المناخية التي تهدد وجودنا الحالي، فإن الباحثة تبرئ العنصر البشري من التدخل في التغيرات المناخية في العصور القديمة، والتي تقول إنها حدثت بسبب تقلبات مناخية وبعض الظواهر الجيولوجية العنيفة مثل البراكين، ومن ثم فإنه لا تأثير يذكر للإنسان على المناخ في تلك العصور.

تدعم نتائج دراسة سابقة نشرت في دورية «نيتشر كوميونيكيشنز» في عام 2017، ما ذهبت إليه الدراسة الحالية من كون الثورات البركانية التي اندلعت حول العالم قد أثرت على الفيضان السنوي لنهر النيل، عن طريق تغيير مناسيب هطول الأمطار. تسبب هذا الجفاف في حدوث ثورة شعبية واضطرابات اجتماعية في مصر، انتهت بانهيار حكم البطالمة في مصر، وانتحار الملكة كليوباترا عام 30 قبل الميلاد.

باختصار

القرن الثالث الميلادي شهد تعرض الإمبراطورية الرومانية بأكملها إلى أزمات في مصر، وثّقتها أكثر من 26000 بردية محفوظة في منطقة الفيوم

■■■

تشير البيانات المناخية الحالية إلى ضعف هطول الأمطار الموسمية على منابع النيل في المرتفعات الإثيوبية بشكل مفاجئ ودائم

■■■

زاد من تفاقم تأثير الظروف البيئية السيئة، حدوث انفجار بركاني قوي قرابة عام 266 ميلادي، في العروض المدارية الشمالية

وأخيراً

مؤنس الرزاز... لقمان سليم

معن البياري

لم تُسمع أصواتٌ للرصاصات الأربع لّما رميت على رأس الكاتب والناشط والناشر اللبناني، لقمان سليم، ولا للخامسة التي راحت إلى عنقه. ردّد من تابعوا النبأ، أخبارا وتعليقات واستفظاعات، إنها رصاصات كاتم صوت. تُرى، هل هو المسدس كاتم صوت، أم أن من كتبوا هذا أرادوا المجاز فأحسنوه، عندما افترضوا أن القاتل هو نفسه كاتم صوت؟ لا أحد كان في موقع الجريمة، حيث عثر على لقمان في سيارته مقتولا. لم يكن إلا القاتل الذي ابتعثه من ابتعثوه لوظيفة وحيدة، أن يكتم صوت ضحيته، فقد كان هذا الصوت، لّما صاحبه كان يجهر بالذي فيه عن حزب الله وعن لبنان، وكان في حاله ذاك مزعجا، فاستحق، في عرف الذين استقرّوا على كتم صوته تكليف صاحب تلك الرصاصات بالمهمّة التي أدّاها.

نعرف عن لقمان سليم، أين أقام ومن تزوّج وماذا درس وأين وماذا كان يعمل، لكننا لا نعرف شيئا عن الذي كتم صوته. هل كان ينجز واجبا وظيفيا فحسب، أم بادر إلى ما فعل ببواعث فيه؟ ماذا تعلّم وأين، ماذا كان في صباه إن كان شابا، وماذا صنع في حياته إن كان خمسينيا مثلا؟ هل هو متديّن؟ هل هو متزوج ولديه أولاد؟ هل قرأ في الفلسفة والتاريخ والأدب ما يسّر له قناعاته التي جعلته يقتل لقمان سليم؟ هل قتل غير لقمان سابقا؟ ...؟ أسئلة تتدافع قدّامك وأنت تنظر في الصورة الشنيعة الأخيرة للكاتب اللبناني، جثّة في سيارة. لا يزيد واحدنا في الطنبور وترا لو رجّح أن سلطات الاختصاص في لبنان لن تصل إلى القاتل. ولو افترضنا، جدلا وحسب، أنه أمكن التعرّف إلى الجهة التي دبّرت الجريمة ونفذتها، وأنها عرفت الفاعل، فإنها لن تحفل بإجاباتٍ عن أسئلة كتلك التي ربما تغوي مخيلات أهل الرواية والقصة.

فعلها صديقنا الروائي الأردني الراحل، مؤنس الرزاز، وكتب روايةً بديعة للحق، واحد من شخوصها المركزيين كاتم صوت، قاتل، يكلّف باغتيال فيفعل. تعرّفنا الرواية به، بكل حاضره وماضيه، بما كانه قبل أن يصير كاتم صوت، وبما أصبح يمرُق في خيالاته من هواجس، بما قرأ ودرس، بكل شيء عنه، عن زوج أمه مثلا، عن عدم شربه الخمر، عن قناعته بأن «الزنى مصعدٌ سريع إلى جهنم، أما القتل فهو حرفة»، اسمه يوسف. جعله مؤنس يستأجر بائعة هوى فقط لتسمع منه، ليحدّثها. لكنها صمّاء تحدق في شاربه الكث، وتسأل نفسها عن سبب عدم رغبته بجسدها. ليست الرواية عن كاتم الصوت هذا وحده، وإنما أيضا عن أسرة ضحيته، والتي تقيم في بلد عربي لا يسمّى في العمل، محتجزة في إقامة جبرية في منزلها، لكن يوسف بطل رئيس في الرواية التي سمّاها صاحبنا «اعترافات كاتم صوت» (طبعتها الأولى في 1986، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت)، ويتخفّى فيها وراء هذه الشخصية، وهو يزاول «تشريحا» لها من داخلها. أفسح لجميع من في روايته أن يسردوا عن أنفسهم، فحضروا بضمير المتكلم لكلّ منهم، بل إنه مؤنس يحضر، مؤلفا، بصوته في مختتم الرواية، ويحضر القارئ أيضا.

يأتي يوسف، من البلد غير المعرّف، حيث «الختيار» في إقامته الجبرية في منزله، إلى لبنان، ليزاول مهنته كاتم صوت. يقول: «سوق وظيفتي مزدهر في بيروت، وأسهم سلعتي رائجة». إنه في حاجةٍ إلى أن يكون ظلا لكائن قوي، وامتدادا له، «كائن يُكملني وأكمله، يحتاجني وأحتاجه، وفي بيروت حقّقت حلمي هذا». يخبر سيلفيا (أو سلافة) بأنه لم يعمل كاتم صوتٍ من قبل، لكنه كان مهيئا لهذه الوظيفة المزدهرة». يعطي مؤنس الرزاز كاتم الصوت هذا صوتا في الرواية، يمنحه حق الحكاية، ولكن أمام صمّاء، في إيحاءٍ بعزلته، وغموضه، وكتمان أمره. إنه يقول عن نفسه أيضا «حين أموت، لا أريد أن أترك سطرا في كتاب التاريخ، ولا فاصلة، ولا ضمّة».. يعرف أنه قليل، وصغير، ووضيع. يقول: «لا أشعر بالخجل حين أعترف أنني لا زلت حتى اليوم أشعر بضآلتي أحيانا». في الوسع أن نماثل بين كاتم الصوت، قاتل أحمد، في رواية مؤنس الرزاز، وقاتل لقمان سليم، في أنهما لا يحفلان بأن يذكرهما التاريخ، فالتاريخ سيعنى بالذي اغتيل لكتم صوته، وليس بالأداة التي كتمته. غير أن القاتليْن، في الرواية المتخيلة في بيروت، وفي الحقيقة المؤكدة في بلدة العدوسية في جنوب لبنان لا يتشابهان في غير أمر، فذاك كان في تنظيم، ثم استنكره في الحبس، .. «وفصل، ولجأ لجوءا سياسيا، وعمل كاتم صوت». إنه يحدّث سيلفيا «ما ألذ الشعور بالقوة والسلطة والنفوذ.. بعد طول اضطهاد». أما قاتل لقمان سليم، فلا نظنه غادر تنظيما، ثم استنكره. ولا نظنه يخجل، ويشعر بضآلته. نظنّه مزهوا بما فعل، وبسلطة ونفوذ وقوة يقيم عليها كلها تنظيمه.

> في الوسع أن نماثل بين كاتم الصوت، قاتل أحمد، في رواية مؤنس الرزاز، وقاتل لقمان سليم

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**